مفهوم المـثاقفـــة بين الخصوصـية والكونـيــة

الباحث : محمد روابحي
مخبر الفلسفة وتاريخها – جامعة وهران2

إن القراءة التاريخية لواقع المجتمعات منذ نشأتها، يظهر جليا أن هناك ارتباط مباشر بين ما يحدث في المجتمعات المختلفة، ذلك من خلال التفاعل مع مختلف الأحداث والتحولات الجارية. وقد ازدادت حدة هذا التفاعل في مجتمعاتنا المعاصرة، من خلال عوامل متعددة كتطور التقنية و شبكة التواصل العالمية بمختلف أنواعها. فقد أصبح ما يحدث في المجتمعات الغربية يؤثر مباشرة في الفرد العربي تقدما أو تراجعا بأبعاده الداخلية أو الخارجية .الأمر الذي يطرح عدة تساؤلات حول كيفية التعاون والتناغم والتكامل في المواجهة الايجابية البناءة لتحديات هذا العصر، بين مجتمعاتنا العربية و المجتمعات الغربية في ظل حتمية هذا التفاعل بين الطرفين. من هذا المنطلق نتطلع في هذه الدراسة إلى قراءة و تحليل مظهر من مظاهر هذا التفاعل أو التقارب و الذي أصطلح عليه الأنثروبولوجيين بالمثاقفة، و مدى ارتباطه بسؤال الهوية. هذا الارتباط تمخض عنه صدام يظهر لنا جليا عند لحظة التقاطع بين فعل المثاقفة و خصوصية الفرد، تصادم بين مميزات و أطر هذا الفعل مع الأسس الجوهرية لمفهوم الهوية. و من منطلق الدور الهام الذي لعبته الهوية كتعبير عن التمايز الثقافي للجماعات منذ بدايات التاريخ ، يحق لنا التساؤل حول السبيل لحماية الهوية في إطار انخراط الشعوب والأمم في تيار التشارك العولمي وفق مبدأ التنوع الثقافي و هل نحن إزاء ثقافة كونية أم إزاء ثقافة قومية ؟، وهل المثاقفة هي فقط مظهر من مظاهر عولمة الذات وتنميط الآخر ؟ أم هي فعل التواصل و الحوار مع الآخر ؟ وهل الـمـثـاقـفـة كفعل و ممارسة هي فاعلية الحضور للأنا أم تبعية الإلحاق للآخر ؟ وهل هذا يعني بمعنى آخر قرع بوابة الانتماء الإشكالي ،أي السؤال عن العلاقة بين الكونية والخصوصية في مجال إنتاج القيم الرمزية.

1 - ماهية المثاقفة أو فعل التثاقف:

المثاقفة أو التثاقف مصطلح برز في حقل الأنثروبولوجيا في أربعينيات القرن العشرين و بالضبط مع الأنثرروبولوجيين الأمريكيين داخل المدرسة المسمّاة «ثقافويّة»، وإن كان الفضل في استخدامه أوّل مرّة يعزى إلى باول وذلك سنة 1880(01). و أصبح مصطلح المثاقفة أكثر تداولية وشيوعاً، بعد أن تمكن من وضع تعريف لهذا المصطلح يقوم على أنه « اختزال واقع تعايش وتلاقح ثقافات مختلفة»(02). و تعرف المثاقفة كذلك على أنها التغيير الثقافي في الظواهر التي تنشأ، حيث تدخل جماعات من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة في اتصال مباشر، مما يترتب عليه حدوث تغييرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في إحدى الجماعتين أو فيهما معاً(03).

وفي تعريف آخر للمثاقفة يمكن اعتباره المعتمد عند بعض المفكرين و الباحثين ،» أن المثاقفة هي مجموع الظواهر الناتجة عن احتكاك مستمر ومباشر بين مجموعات أفراد تنتمي إلى ثقافات مختلفة

تؤدي إلى تغييرات في الأنماط الثقافية الأولية للجماعة أو الجماعات «(04) .

فالمثاقفة إذن هي عملية التطور الثقافي الذي يطرأ حين تدخل مجتمعات أو جماعات أو شعوب تنتمي إلى ثقافات مختلفة في اتصال وتفاعل يترتب عليهما حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في الجماعات كلها أو بعضها. لذلك تعبر المثاقفة عن أوجه التبادل الثقافي بين الحضارات البشرية المتعددة وحالة من الاعتدال بين الذوبان والتصلب في التعاطي مع ثقافة الآخر. وهي اتجاه يسعى أن يكون وسطا بين الانفتاح المطلق الذي يؤول إلى الانصهار في ثقافة الآخر وبين الانغلاق المطلق الذي يؤول إلى الانعزال تماماً عن الآخر.

- مفهوم الهوية :

يعد مفهوم الهوية من المفاهيم التي تثار بشدة في مجالات البحث العلمي، نظراً لاقتحام المفهوم لجميع المجالات العلمية من فلسفة ومنطق وعلوم إنسانية من أنثروبولوجيا وتاريخ فينومينولوجيا و لقد شكّل هذا المفهوم محور اهتمام وتفكير العديد من الفلاسفة، وهو مصطلح مشتق من أصل لاتيني، وتعني أن الشيء نفسه، أو الشيء الذي هو ما هو عليه على نحو يجعله مبايناً لما يمكن أن يكون عليه شيء آخر.

وحين الرجوع إلى المعنى اللغوي لاصطلاح «الهوية» نجد أنها مشتقة من الضمير «هو»، أما مصطلح «الهو هو» المركب من تكرار «هو» فقد تم وصفه كاسم معرف بـ»ال» ومعناه «الاتحاد بالذات»(05). كما أن مفهوم الهوية يشير إلى ما يكون به الشيء «هو هو»، أي من حيث تشخصه وتحققه في ذاته وتميزه عن غيره، فهو وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري، ومحتوى لهذا الضمير في نفس الآن بما يشمله من قيم وعادات ومقومات تكيف وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها(06).

وقد جاء في الموسوعة الفلسفية تعريف للهوية على أنها:» مقولة تعبّر عن تساوي وتماثل موضوع ما مع ذاته، أو ظاهرة ما مع ذاتها، ويتطلب تعيين هوية الأشياء أن يكون قد تمّ تمييزها مسبقاً، ومن ناحية أخرى فإن الموضوعات المختلفة غالباً ما تحتاج إلى تحديد هويتها بهدف تصنيفها. وهذا يعني أن الهوية ترتبط ارتباطاً لا يمكن فصمه بالتمييز بين الأشياء ... إن هوية الأشياء مؤقتة وانتقالية، فتغيرها وتطورها مطلقان «(07).

وفي تعريف آخر للهوية يقول أبو نصر الفارابي:» أن الهوية الشيء عينه، ووحدته وتشخّصه وخصوصيته، ووجوده المتفرّد له، وقولنا أنه «هو» إشارة إلى هويته وخصوصيته ووجده المنفرد له، لا يقع فيه اشتراك. هكذا تتأكد الصبغة الواحدية لمفهوم الهوية على المستوى الفلسفي. إذ «هو» يعني أصلاً المماثلة والتوحّد، ويُضاده مفهوم التخلف والتكاثر، وهو بهذا يقترب من مفهوم الهو هو»(08).

و يطلق مفهوم الهوية على نسق المعايير التي يعرف بها الفرد ويعرف، وينسحب ذلك على هوية الجماعة والمجتمع والثقافة، و هنا نقطة التقاطع و الالتقاء بين المفهومين، بين مفهوم الهوية و مفهوم المثاقفة .فالهوية أكثر المفاهيم تغلغلا في عمق حياتنا الثقافية والاجتماعية اليومية، ومن أكثرها شيوعا

واستخداما، فالهوية من هذا المنطلق تمثل الذات أو الوعي بها فحين يظهر الآخر في حياتنا بالضرورة يحدث فعل ورد فعل، على المستوى الثقافي نسمي هذا الفعل بالمثاقفة. وهنا تطفو للسطح إشكالية أو سؤال الهوية بين ما نعتبره خصوصية لنا وبين اندماجنا في الكونية كليا وفقدان هذه الخصوصية. فالمثاقفة مع الآخر تعد من أبرز المشكلات الفكرية المعاصرة في عالمنا العربي لأنها اتصلت اتصالاً مباشراً بالذات من جهة وبالآخر من جهة ثانية.

- مفهوم المثاقفة في الخطاب العربي :

إن السمة البارزة لمفهوم المثاقفة في الفكر العربي تتجلى في مواقف بعض المثقفين العرب التي اتسمت بالحذر من المثاقفة برغم اعترافاتهم بأهميتها وبضرورة الانفتاح على الآخر وثقافته. وثمة مفكرين تعاملوا مع هذا المفهوم من منطلق مختلف يقوم على ضرورة التمييز بين مفهوم المثاقفة الذي يعني التفاعل المتكافئ والاحترام المتبادل بين مختلف ثقافات الشعوب وبين مفهوم التبعية والاستلاب والغزو الثقافي والعولمة الثقافية والغربية والأمركه. فنجد الجابري يعتبرها أي المثاقفة إيديولوجيا و فكر للهيمنة و نفي الآخر يقول في بعض أطروحاته " إن العولمة ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي، بل هي أيضاً وبالدرجة الأولى إيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم»، و «العولمة هي نفي للآخر وإحلال للاختراق الثقافي محل الصرع الأيديولوجي». وأن «ثقافة الاختراق تقوم على جملة من الأوهام هدفها التطبيع مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري»(09). ويرى الجابري أنه "ليس هناك ثقافة عالمية واحدة، بل ثقافات»، وأن «تجديد أي ثقافة لا يمكن أن يتم إلا من داخلها، بإعادة بنائها و ممارسة الحداثة في معطياتها وتاريخها والتماس وجوه من الفهم والتأويل لمسارها تسمح بربط الحاضر بالماضي في اتجاه المستقبل». و يعتبر الجابري أن «الهوية الثقافية مستويات ثلاث: فردية، وجمعوية، ووطنية قومية، والعلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساساً بنوع (الآخر) الذي تواجهه... ولا تكتمل الهوية الثقافية إلا إذا كانت مرجعيتها جماع الوطن والامة والدولة»(10). من هذا المنطلق يبدي الجابري تخوفه من انشطار الهوية الثقافية العربية، لأن نظام العولمة و الهوية الكونية يعمل على تفتيت و تفريغ هويتنا من كل محتوياتها، وربطنا بمفاهيم جديدة.

و في رؤية أخرى مغايرة نجد المفكر العربي علي حرب يرى أن صفات الجمود و الثبات في هويتنا لا تساعد في الحفاظ عليها، بل يجب مسايرة التغيرات التي تحدث حولنا. و محاولة التساير معها إيجابيا بمعنى فهم كيفية التغير يقول في كتابه « الماهية والعلاقة « أن اندفاعات العولمة وخصوصاً في مسارها الثقافي تهدد بجرف المترددين في كيفيات التعامل معها، إذ هي تواصلية بلا فراغات وذات صفة مكانية مشغلة بكاملها لا مطرح فيها للحياديين والمتفرجين. وتفرض التجدد والتغير التكيفي الذي تقتضيه التساوقات، لأن الميل الدائم إلى المسبق والثابت والمنجز لا يمكن أن يستمر في تأهله طويلاً لمواصلة القيام بوظيفة الحفاظ على الهوية، وذلك لأن منطق الهوية في المتغيرات العاصفة التي يعيشها عالم اليوم مرتبطة باستحقاقات ما يلزمنا عامل الزمن بالإجابة على الأسئلة التي يطرحها. وأول هذه الاستحقاقات هو «أن نستبدل سؤال من أكون؟ بسؤال كيف يمكن أن أتغير لكي أُغيّر علاقات المعرفة والثروة والسلطة...»(11).

إن الخطاب العربي في فهمه و تحليله و قراءته لمفهوم المثاقفة عرف اختلافات و فروق متعددة، كلها بنيت على أسس و توجهات معينة . فهناك قراءات موضوعية كانت منطلقاتها واقعية و هناك قراءات غالت في القول و جانبت الموضوعية في التحليل لمفهوم المثاقفة الذي قد يعتبر مظهر من مظاهر العولمة .فنجد مفكرين مثلا ممن اعتبروا كل هذه المفاهيم مجرد غزو ثقافي بصورة مهذبة. لا يحوي في طياته سوى مظاهر الاستقطاب و التبعية

و التغريب، و قد اختيرت له تسميات أخرى توحى بالحضارة و التلاقح المعرفي. في حين الواقع غير ذلك تماما فهناك ثقافة غازية و ثقافة مغزوة.

- المثاقفة تبعية و استلاب أم تبادل و اعتراف بالهوية الثقافية للآخر؟

من خلال ما سبق في قراءتنا لمفهوم المثاقفة في الخطاب العربي يظهر جليا أن هناك أزمة أو اختلاف حول طبيعة هذا المفهوم، خاصة أن الخطاب العربي على مستوى المفاهيم لا يخلو أبدا من الصراعات الثنائية و الاختلافات في الفهم و القراءة خاصة للمفاهيم المرتبطة بالغرب. فلكل منطلقات و ظروف و إيديولوجيات تتحكم في التأويل و التفسير و الفهم، و غالبيتها لا تتبنى الحقيقة كهدف و إن كان هذا ليس في العلن. لذا فنحن بحاجة ماسة و ضرورية لإعادة بناء جميع المفاهيم و التصورات المتداولة. فمن ينظر للمثاقفة رؤية و نظرة سوداوية يرى أن الفكرة الأساسية التي تقف وراء هذه الإشكالية المسماة بـالمثقافة، هي الاعتقاد المطلق بأن الثقافة الغربية نتاج إنساني عالمي، يتجاوز الزمان والمكان، ويعبر حدود الجغرافيا والتاريخ. وبالتالي لا يختص بحضارة دون حضارة. وفي جملة واحدة نزع الخصوصية عن الثقافة الغربية. هذا الاعتقاد في رؤيتهم هو أكبر وهم ما زال يعشش في أذهان كثير من مثقفينا العرب. فالفكر الغربي في حقيقته لا يعدو أن يكون بيئياً محضاً - كأي فكر بشري - نشأ في ظروف معينة هي تاريخ الغرب نفسه، وبالتالي فهو صدى لتلك الظروف. والمفكِّرون الغربيون - كما يقول حسن حنفي «يعبّرون عن ذلك بأنفسهم بقولهم: فلسفتنا، حضارتنا، فكرنا، أدبنا، فننا، تاريخنا، موسيقانا، علومنا، بل حتى ديننا! و إلهنا! فعند الكتَّاب الأوروبيين إحساس واضح بأنهم ينتمون إلى حضارة بعينها، وبأنهم ينتمون إلى حضارتهم الخاصة المتميزة عن الحضارات الأخرى. لذلك كان خطؤنا، نحن الكتَّاب العرب غير الأوربيين، الذين ترجموا مؤلفاتهم و شرحوها، وعرضوها، بل وانتسبوا إليها، واعتنقوها و اعتبار الحضارة الأوربية حضارة عامة للناس جميعاً، ولم نرَ نوعيتها، أو رأيناها وتغافلنا عنها رغبةً في الحصول على الجديد بأي ثمن، وفي فترة لم نكن فيها على وعي كاف بتراثنا القديم، أو كان هذا الوعي محصوراً في فئة معينة من المصلحين والإحيائيين»(12).

و إذا أردنا العودة إلى مفهوم المثافقة في الفكر الغربي فإننا سنجده مختلفاً تماماً عما يطرح في محيطنا الثقافي، حيث تطرح المثاقفة على أنها «علاقة بين متفوقة وثقافة متخلفة»(13)، بمعنى آخر كما يقول حسن حنفي « أن المثاقفة التي يوهم الغرب بأنها تعني الحوار الثقافي والتبادل الثقافي؛ هي في الحقيقة تعني القضاء على الثقافات المحلية من أجل انتشار الثقافة الغربية خارج حدودها، وهيمنتها على غيرها، واعتبار الغرب النمط الأوحد لكل تقدم حضاري، ولا نمط سواه، وعلى كل الشعوب تقليده، والسير على منواله، واحتكار الغرب وحده حق إبداع التجارب بالجديدة والأنماط الأخرى للتقدم»(14).

وما يضفي بعض المصداقية للرأي المتوجس خيفة من فعل المثاقفة، و يعطي تبريرا لكل هذه التخوفات هو ارتباط هذا الفعل بالعولمة و التي تعد ذاتها من أخطر موانع التثاقف، خاصة إذا فهمناها؛ أي العولمة، على حد ما يتصورون، أنها عمليةَ تعميم وفرض لنموذج الحياة الغربية، بكامل أبعادها؛ الأيديولوجية والاجتماعية والنفسية والأخلاقية، وكونها أسلوب المعيشة وطريقة التفكير ونمط الذوق والحساسية الجمالية والآفاق والجانب السياسي والناحية الاقتصادية والأحلام والمشاعر...إلخ؛ أي النموذج الحضاري الغربي والرؤية الكونية الغربية، إذ تعم أرجاء العالم إلى أبعد نقطة ممكنة ومتاحة، وغير متاحة، إذا لزم، وهي إضافة إلى ما سبق، عملية ابتلاع للعالم بثقافاته واثنياته وخصوصياته، ثم إعادة إنتاجه وفق منظور مادي رأسمالي .

فالمثقافة من خلال هذا التصور مجرد صورة جديدة ومهذبة من صور الاسترقاق والتبعية الثقافية للنموذج الغربي وهي امتداد لأزمة النهضة. والتي تحولت من حلٍّ للأزمة إلى أزمة في ذاتها. و إلى اليوم ونحن نعيش هذه الأزمة أزمة التراث والمعاصرة.

بعد هذه الرؤية السلبية لفعل التثقيف كمفهوم غربي و كل ما ينتج عنه من آثار جانبية سلبية بكل ما تحمله هذا الكلمة من معنى، تنفي وجود الآخر جملة و تفصيلا نحاول التموقع فكريا في الجانب الآخر الذي يعتبر أن المثاقفة في الأصل تفاعل خياري طوعي ومباشر لا يتم ولا يثمر إلا برغبة تبادلية بين ثقافتين. أما في حالات الاختلاط القهري الناتج عن الحروب والاستعمار لا يمكن أن تتحقق. وتكون نتيجة الاختلاط الناجم عن ذلك «تشوهات ثقافية» (15)، لا يمكن أن تترك نتائج تأصيلية تتمتع بأي سمة من المثاقفة.و هنا لابد من الإشارة إلى ضرورة التفريق بين المثاقفة و الغزو الفكري حتى لا يحدث التباس بينهما. فكلا المصطلحين يدل على وجود علاقة ما بين ثقافتين أو أكثر، وهذه العلاقة التي تربط ثقافتين متباعدتين أساسا في جذورها الدينية و انتماءاتها العرقية، و واقعها الجغرافي، و تراثها الاجتماعي و الثقافي و الجمالي، إما أن تتبع منحى تواصليا حواريا يتولد منه التفاعل الحضاري والتثاقف، وإما أن تتبع منحى تصادميا يتولد منه الاستلاب الحضاري. لذلك كان **الغزو الفكري هو النقيض للمثاقفة، لأن المثاقفة تقوم على مبدأ التواصل وطلب الاغتناء بثقافة الآخر وإغناء ثقافته في الوقت نفسه في جو من التكافؤ و الحوار، مما يولد علاقة تفاعل مثمر تسير في اتجاهين، بينما** يستهدف الغزو الثقافي احتلال العقل وغزوه من الداخل، و استغلال حالات الضعف الذاتي لتخريب المناعة الذاتية للكيان المغزو، ومن ثم دوام الهيمنة على الإدارة والإمكانات القومية برمتها دون حاجة إلى الأسلحة التقليدية، لأنه مزود بسلاحه الفتاك الداخلي أي التنميط الثقافي من خلال آلية صناعة العقل و توجيه الثقافة. والمثاقفة بعكس الغزو الثقافي الذي يتضمن في طياته الرغبة في محو الآخر وإلحاقه وفرض التبعية عليه ، ومعاملته بنظرة فوقية عدوانية متغطرسة .. إن المثاقفة تقوم في أساسها على الاحترام والتسامح والاعتراف بخصوصية الآخر واختلافه ، وفي إطارها تتفاعل الجماعات والشعوب وتتواصل بهدف الاغتناء المتبادل، لهذا فهي تفترض الثقة والرغبة في التواصل والتقدم والتطور واكتساب العلم والمعرفة.

من منطلق هذه الرؤية التحليلية يتضح أن المثاقفة تتموقع موقع عكسي مع الغزو الثقافي، لأنه يتضمن في طياته الرغبة الجامحة في هزيمة الآخر وقهره، بمعنى القضاء على هويته و خصوصياته، ثم محوه وإلحاقه

وفرض التبعية عليه؛ ومعاملته بنظرة فوقية عدوانية ومتغطرسة. وأما المثاقفة فتقوم على التساوي والاحترام والتسامح والاعتراف بالآخر، وحقه في الإختلاف. و من خلال منهج الاحترام المتبادل بين الذات و الآخر تكتسي المثاقفة أهمية علمية وإنسانية بالنسبة للفرد ، لأنها تنمي معرفته بالآخر ، ونستطيع من خلالها أن ندرك العلاقة بين ضرورة الانفتاح على الآخر ، وضرورة ترسيخ قيم الانتماء ، ولذلك فإن معرفة الآخر ضرورية ليتعرف الفرد على ذاته ومقومات هويته بشكل أفضل وأكمل من خلال اختلافه عن الآخر. ومن ناحية أخرى تعد المثاقفة وسيلة فعالة لتنمية روح الثقة والتسامح بين الأفراد والجماعات ، فهي تزيل كثيرا من الأوهام والأمراض والمخاوف ، وتساعد أيضا على خلق تواصل وتفاهم أفضل بين الشعوب ، وعلى تفعيل القواسم المشتركة بينها ، مما يؤدي إلى إزالة بؤر التوتر والعداوة التي غالبا ما يغذيها التقوقع والانعزال والجهل بالآخر والأحكام المسبقة والسلبية.

التثاقف وسيلةَ تواصل إذن، لكن من غير العدل تعميم الخصوصية الغربية، بدعوى الكوننة، أو العولمة، أو ما شئت من التوصيفات والنعوت، خاصة إذا وضعنا في حسباننا نظريًا ما قيل سابقًا، وتأكيدًا إن الثقافة «بيئة مكونة من الألوان والأصوات، والأشكال والحركات والأشياء المأنوسة، والمناظر والصور، والأفكار المتفشية، في كل اتجاه. صورة خيالية تمارس مفعولها على الراعي وعلى العالم بالسواء، وهي الوسط الذي يتشكل داخله الكيان النفسي للفرد، بالصورة نفسها التي يقيم بها تشكل كيانه العضوي داخل المجال الحيوي الذي ينتظمه» (16). فالمثاقفة نظام عالمي كوني تواصلي، يبغي تهيئة أرض الاطلاع على ما للآخر من عناصر مكونة لذاته، ولشخصيته التاريخية، ورؤية ما له من مميزات هوية، ومفردات تكون، حتى يقدر على الدخول إلى عالمه، والولوج إلى حياته، بقصد الفهم، أو الهيمنة، أو التعرف.

- مفهوم المثاقفة من المستوى النظري إلى الممارسة في الواقع :

إن الطرح النظري لهذا المفهوم يعطي للفرد كيانه و خصوصيته و لا ينفي الهويات الثقافية للمجتمعات في ظل رؤية كونية عالمية. باعتباره أحد أوجه التبادل الثقافي ذي النزعة التكاملية التي تناسب التعبير عن خاصية «الأخذ والعطاء» بين الثقافات البشرية «المتعددة». والتعدد هنا لا يمكن أن يعني بأي حال من الأحوال التطابقية، و لا يمكن أن يشمل إدماج الهويات كلها في واحدة. هذه هي رؤية مفهوم المثاقفة على المستوى النظري أما على المستوى العملي فالمثاقفة كممارسة في الواقع نجدها عكس ذلك تماما، فقد أصبحت هناك تبعية مطلقة لكل فكر غربي، و بدأت هويتنا تتلاشى شيئا فشيئا . فحتى النتاج الثقافي في محيطنا العربي بكل أشكاله وأنواعه؛ لا يخرج عن سياق مفهوم الهيمنة. فكثير من مثقفينا و مفكرينا قد وصل بهم المطاف من خلال هذه المثاقفة إلى حالةٍ لم يعد الواحد منهم قادراً على الإبداع قولاً أو فعلاً إلا إذا تمت إحالة إبداعه إلى مصادره الخارجية في الحضارة الغربية ماركسية أو وجودية أو وضعية أو بنيوية أو تفكيكية أو أي شيء آخر، المهم أن يكون النموذج الغربي هو المنطلق. وبعبارة أخرى: أصبح الغرب من خلال هذه المثاقفة هو الإطار المرجعي الأول والأخير لكل إبداع ذاتي عربي. هذا ما يحدث مع مثقفينا فكيف تبعية رجل الشارع لكل ماهو غربي ، خاصة في ظل هذه القوة و الهالة الإعلامية الضخمة للغرب. وهنا لا نجد بدا من الاستشهاد بما قاله حسن حنفي أو بالأحرى اعترافه لكونه يعد من أكبر من مارس المثاقفة مع الفكر الغربي، إذا لم نكن نغالي في القول، حيث يقول: «منذ أكثر من قرنين من الزمان نترجم، ونعرض، ونشرح، ونفسر التراث الغربي دون أن نأخذ

منه موقفاً صريحاً واضحاً. مازال موقفنا موقف الناقل، عصر الترجمة لدينا لم يتوقف بعد ...وما زال أكبر مشروع لدينا إلى وقت قريب هو النقل، والذي سميناه ترجمة الأعمال الكاملة لكبار المفكرين في الغرب، ويظل أكبر مشروع لنا في ثورتنا الحديثة هو ترجمة (الألف كتاب) نقلاً عن المؤلفات الغربية ... وكأننا محكوم علينا بالنقل، عاجزون عن الإبداع، دورنا في التاريخ هو دور التلميذ والمتعلم والصبي أمام الأستاذ والمعلم الكبير ... لقد أصبحنا وكلاء حضاريين للغرب، وأصبح حامل العلم والفكر لدينا هو الذي يبدأ حياته الفكرية بذكر أكبر عدد ممكن من الأسماء والأعلام والمذاهب الفكرية من الغرب منتسباً إلى أحدها، داخلاً في معاركها، داخلاً فيما لا شأن له به، حاشراً نفسه في معارك لم ينشئها ولم يكن طرفاً فيها ...وتنتشر المصطلحات بين الباحثين الشباب فيشعرون بضالتهم أمامها: الهرمنيوطيقا، الاستطيقا، الأسلوبية، البنيوية، التفكيكية، الفينومنولوجيا، الأنثروبولوجيا، الترسندنتالية..... و أصبح المثقف هو الذي يلوك بلسانه معظم هذه المصطلحات"(17).

- الهوية كدافع للتطور و الإبداع الحضاري :

إن السؤال عن الخصوصية يحيل إلى الهوية من جهة ما يميز الإنسان بما هو كائن ينتمي إلى مجموعة أو مجتمع معين. وهذا يعني أن إشكالية الخصوصية والكونية تجعلنا نغادر نهائيا حقل الفردية المنغلقة على ذاتها إلى مستوى أوسع من الانفتاح على الغيرية في مختلف أشكالها وأبعادها الثقافية والحضرية. فالهوية تتحدّد عموما باعتبارها ما به يكون الشيء هو نفسه، وهذا التحديد للهوية ليس بعيدا عن معنى الانية من حيث أنها تحيل إلى ما يميز الإنسان وما يعبّر به عن حقيقته من وجهة ميتافيزيقية.

ولكن ليس بالضرورة أن التنوع في الهويات و تعدد الخصوصيات ما يتعارض و انسجام الشعوب و المجتمعات في إطار تعاون إنساني، قائم على قواعد الاحترام المتبادل و الاعتراف بالآخر، وبالتالي هذا التنوع و التعدد في الهويات يصبح مغذيا لأسباب التقدم و الرقي و التطور الحضاري، نجد هذا الطرح عند المفكر الفرنسي ادغار موران(18) (Edgar Morin)، فهو يتناول مشكل الهوية من جهة تعقّد وتنوّع مستويات الهوية الإنسانية، إذ أنه يرى أن التنوع بين الأفراد والثقافات يبلغ حدا كبيرا إلى درجة أننا نحسب القول بالوحدة الإنسانية ضربا من التجريد. وبخلاف ذلك قد يتضمن القول بوحدة الإنسانية القضاء على فكرة التنوّع. وفي كلتا الحالتين لا نتمكّن من فهم جدلية الوحدة والتنوع بما هي الأساس التفسيري للإنسان والثقافة على حدّ السواء، لذلك ينقد ادغار موران التصورات التي تقف عند الوحدة فحسب و تلك التي تقف عند الكثرة فحسب دون اعتبار الجدلية القائمة بين الوحدة والكثرة، إذ يجب أن ننظر في الوحدة من جهة كونها تنتج التنوّع لا من جهة كونها تولّد التجانس وتقضي على التنوع كما يجب أن ننظر للتنوع من جهة كونه ينتج الوحدة، لا التنوع الذي ينغلق على ذاته فيقضي على الوحدة. ذلك أن «موران" يعتبر الهوية مركبة من هوية شخصية وهوية اجتماعية وهوية ثقافية أي كهوية تدرك من الداخل ولكن أيضا كهوية يمكن التعرف إليها من الخارج وتمثل الأساس الذي يستمدّ منه أيّ مجتمع أو ثقافة اختلافها وتميزها عن مجتمع آخر أو عن ثقافة أخرى، فكيف يمكن إذا أن نحافظ على الهوية دون في إطار بناء ما هو كوني؟

يورد إدغار موران تساؤلاً مبنيًا على تشخيص منتبه إليه: أي تنوع مذهل لا يحصي على كوكب الأرض هذا، حيث تنوع الأجناس وتعدد الاختلاط، وكما تبين الجغرافية المتعددة الألوان، فإن الأمم آخذة في الازدياد والاثنيات أكثر عددًا وتنوعًا من الأمم بعد، وقد ازدهرت آلاف اللغات مع تنوع لامتناه لقواعد اللغة وتراكيب الكلام والمفردات والأصوات التي تميز بينها. وإذا كان كثير من اللغات ضئيلة الأهمية تموت حاليًا فذلك لأن اللغات المهمة تخنقها، لكن تظهر لهجات دارجة ولغات مختلطة ورطانات في كل مكان(19).

و برغم التنوع الذي تعرفه كل مناحي الحياة البشرية، سواء كان تنوعًا عرقيًا، دينيًا، لغويًا، ثقافيًا، اجتماعيًا كقبائل وطبقات وفيزيولوجيًا من حيث الشكل والطول و نفسيًا كالشخصيات و الطباع، يقر موران بأنه «بقدر وضوح التنوع البشري للعيان أصبحت الوحدة البشرية اليوم واضحة للأذهان»(20)، ليتوصل إلى إمكانية بناء هوية بشرية مشتركة بناء على عناصر الوحدة التي تجمع بين البشر، وحدة إزاء الموت والثقافة والسوسيولوجيا، منطلقًا من أنه ليس هناك تعريف للثقافة يشمل جميع الثقافات من غير النظر إلى اختلافاتها، كما أنه بداخل مجتمع ثمة موسيقى، غناء، شعر، عقلانية، دين، تقنية، سحر، طقوس، عبادة... ليصل بعد ذلك إلى فكرة مفادها أن التنوع والتعدد يمكنه أن يكون أصلاً للوحدة.

بهذا المعنى، تعدّ المثاقفة رافدًا مهمًّا تسعى كلُّ أمةٍ من خلاله إلى معرفة الآخر واستثمار ما لديه من معطيات إنسانية وحضارية، وإلى تنمية كيانها الثقافي بشكل خلاق وغير مضر بمقومات الهُوية وثوابتها. كما إن مفهوم المثاقفة يصلح أن يكون بديلًا عن مفهوم (الغزو الثقافي) الذي يتضمن في طياته الرغبة في محو الهوية وإلحاقها بالآخر وفرض التبعية عليه، ومعاملته بنظرة فوقية احتقاريه. هكذا تُقدّم المثاقفة في الدراسات الأنثروبولوجية؛ حالة من الاعتدال بين الذوبان والجمود في التعاطي مع ثقافة الآخر. ولعله من الضروري لدرء هذه الشبه الذي يكتنف هذا المفهوم ورفع الالتباسات عنه يجب تركيز النظر على ضبط شروط المثاقفة وتحديد خصائصها حتى لا تظل هدفا للأوهام والمغالطات ومصدرا لردود أفعال في غير محلها. ومن ابرز تلك الشروط والأركان الاعتراف بواقع التنوع الثقافي وبالخصوصيات الثقافية وبالعلاقة العضوية والحميمة بين الثقافة والمجتمع مما يتعذر معه إخضاع ثقافة لأخرى أو دمجها فيها مادامت متحصنة بأصالتها ومحافظة على مناعتها ومطلعة بوظيفتها على قدم المساواة مع سائر الثقافات. مع المشاركة الطوعية والتفاعل السلمي إذ لا مثاقفة إلا بمشاركة إيجابية من كلا الطرفين عمادها حرية الاختيار وتلقائية المبادرة وسيادة القرار بعيدا عن التلقي السلبي وعن أجواء التوتر وضغوط الهيمنة مهما كانت أشكالها وصيغها وسواء أكانت مضمرة أو معلنة وذلك لان التثاقف لا يستقيم ولا يثمر إلا إذا كان نابعا من إرادة حرة ومن تطلعات متأصلة في الكيان الاجتماعي ولم يكن بمثابة تركيبة مصطنعة ومقحمة في ذاك الكيان قد تهدد وجوده في الآن وقد يرفضها مهما طال الزمان.

كل هذا يتحقق في ظل وجود وعي عقلاني خلاق ذلك هو الأمل الذي نحاول تمثله و العمل بمقتضاه حتى نشق طرق المستقبل بكل ثقة و اقتدار.

الهوامش :

-1 معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا، بياربونت، ميشال ميزار، ترجمة مصباح الصمد، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات

والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الأولى- 2006
-2 المصدر نفسه
-3 إبراهيم أبو عرقوب – الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي – دار مجدلاوي للنشر والتوزيع –ط1 ، ص 32.
-4 معجم العلوم الإنسانيّة ، دورتيه، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع-بيروت ،الطبعة الثانية 2011-، ص 119.
-5 جميل صليبا، المعجم الفلسفي الجزء الثاني. دار الكتاب اللبناني، 1979.
-6 المصدر نفسه.
-7 المصدر نفسه
-8 معجم العلوم الإنسانيّة ، دورتيه، مصدر سابق ذكره،ص 120.
-9 محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، المغرب، مجلة فكر ونقد، العدد06، ص 5
-10 المصدر نفسه، ص 5
-11 العولمة والثقافة، حاتم بن عثمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان 1999م.ص 37.
-12 حسن حنفي، مقدمه في علم الاستغراب الطبعة الأولى ، الدار الفنية، القاهرة ، 1991، ص 29.
-13 المصدر نفسه، ص 30.
-14 المصدر نفسه، ص30.
-15 العولمة والثقافة، حاتم بن عثمان، مصدر سابق ذكره، ص 40.
-16 المصدر نفسه ، ص40.
-17 حسن حنفي، مقدمه في علم الاستغراب، مصدر سابق ذكره، ص 32.
-18 إدغار موران فيلسوف و عالم إجتماع فرنسي معاصر و لد في باريس يوليو 1921 من مؤلفاته المهمّة كتابه الموسوعي ‹ المنهج› الذي أصدره في ستة أجزاء وجمع فيه خبرته في علوم كثيرة مثل البيولوجيا والفيزياء والفلسفة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم اللغة والتواصل، فهو يقول أنّ ‹ لا معرفة من دون معرفة للمعرفة› وهذا ما يمهّد لنظريته التي يسمّيها بالفكر المركّب Complexus وهي نظرية تركيبية للفكر والمعارف تربط بعضها ببعض، وتعيد بناءها وتنظيمها من جديد وهذا يتطلّب إصلاحا للفكر، ممّا يدفعنا إلى أن نتعلّم كيف نفكّر بشكل جديد وشمولي.
-19 إدغار موران، النهج، إنسانية بشرية، الهوية البشرية، ترجمة د. هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والثرات (كلمة)، الطبعة الأولى، 2009، ص 71.
-20 المصدر نفسه، ص 73.